



## تجليات المكان في الرواية زمن الربيع العربي الرواية اللبنانية "حيّ الأميركيان"، نموذجًا



This work is licensed under a  
Creative Commons Attribution-  
NonCommercial 4.0  
International License.

د. سلمى عطالله

أستاذة التقاد الحديث

في جامعة سيّدة اللّوزية، لبنان، ومنسّقة دائرة اللّغة العربيّة فيها

نشر إلكترونيًا بتاريخ: ١٩ مايو ٢٠٢٥م

### الملخص

الأحيان عن واقع أولادهم وما يواجهونه، ما سهّل على زعماء الجمعيات الدنيّة المتطرّفة الانقضاء على هؤلاء الأولد الشباب، بعد أن استغلّوا الدّين وحرفوه لتحقيق مآربهم. كذلك غابت الدّولة عن هذا المكان حاصرةً دورها في القمع والمراقبة والاعتقال بعيدًا عن الاحتضان والحماية والمبادرة والتّخطيط والإصلاح... لقد جعل هذا المكان الذّات تتخبّط في ضياعها، وتغور بعيدًا عن كينونتها، عن أصالتها. لكن، وفي ومضة زمن، وعندما صادف أن وُجدت هذه الذّات بعيدة عن مكانها، تمكّنت من معانقة كينونتها ومن العثور على أصالتها، وإن لفترة وجيزة.

الكلمات المفتاحيّة: المكان؛ الإرهاب؛ الدّين المتطرّف؛ الفقر؛ الإحباط؛ غياب الدّولة؛ إهمال الأهل؛ الكينونة؛ الأصالة؛ اللاأصالة.

### Abstract

The setting contributes to creating the novel's meaning as the novelist

إنّ المكان يساهم في خلق المعنى داخل الرواية إذ يحوّل الروائيّ إلى أداة للتعبير عن الموقف من العالم.

ورواية "حيّ الأميركيان" للكاتب اللبنانيّ "جبّور الدّويهي" هي رواية المكان بامتياز، وذلك من خلال الأفعال التي جرت فيه، كما من خلال ما يمتلكه هذا المكان من ميزات، حوّلتها إلى أرض خصبة للإرهاب، فحضر التّطرّف فيه وانطلق ونما... ومن هذه الميزات: إطباق الفقر على المكان الذي كانت له علاقة وثيقة بالعنف وازدهار الحركات الأصوليّة، التي كانت تبحث عن هذه الأماكن لأنّها تجد فيها أرضًا خصبة لاختيار الأتباع ولترسيخ التّطرّف في عقولهم. كذلك الإحباط الذي سيطر على المكان بسبب الحرب والانفجارات وسقوط القتلى وانتشار التلوث واختفاء المساحات الخضراء... ما جعل المكان غير قادر على محاكاة تطلّعات ناسه، فالذين هجروه أو بقوا فيه كانوا محبّطين يائسين. وقد كان لإهمال الدّولة والأهل دور في تعزيز هذا التّطرّف، إذ غاب الأهل في معظم

frustrated and desperate. The negligence of the state and parents played a role in promoting this radicalization, as parents were often unaware of the reality of their children and what they faced, which made it easier for the leaders of extremist religious associations to attack these young children after they exploited and distorted religion to achieve their goals. The state was also absent from this place, limiting its role to repression, surveillance, and detention, far from embracing, protecting, initiating, planning, and reforming... However, in a flash of time, when this self happened to be far from its place, it was able to embrace its being and find its authenticity, albeit briefly...

**Keywords:** Setting; terrorism; extremist religion; poverty; frustration; lack of state; parental neglect; being; authenticity; inauthenticity.

\* المقدمة

إنّ الرواية، في الصّورة العامّة، هي "نصّ نثريّ تخيّلّي، سردّي، واقعيّ غالبًا، يدور حول شخصيات متورّطة في حدث مهمّ، وهي تمثّل للحياة والتّجربة واكتساب المعرفة." (زيتوني ٢٠٠٢: ٩٩) وقد أضحى من البديهيّ القول إنّ الرواية حازت مكانة مهمّة لا ينافسها عليها شكل تعبيريّ آخر، حتّى إنّ النّقاد أحاطوها باهتمامهم. يقول عنها

transforms it into a tool to express his attitude towards the world.

The novel "Neighborhood of the Americans" by the Lebanese writer Jabbour Douaihi is a novel of setting par excellence, through the actions that took place in it, as well as through the features that this place possesses, which turned it into a fertile ground for terrorism, in which extremism was present, launched and grew... These features include the poverty of the place, which was closely related to violence and the prosperity of fundamentalist movements, which were looking for such places because they found in them a fertile ground for selecting followers and consolidating extremism in their minds: The poverty that surrounded the place, which was closely related to violence and the flourishing of fundamentalist movements, which were looking for such places because they find fertile ground for selecting followers and entrenching extremism in their minds. Also, the frustration that dominated the place due to the war, the explosions, the death toll, the spread of pollution, and the disappearance of green spaces... This made the place unable to emulate the aspirations of its people, and those who abandoned it or stayed in it were

د. "لورانس" (David Herbert Lawrence) إنَّها "كتاب الحياة الوحيد الوضّاء" (لحمداني ٢٠٠٠: ٢).

هذه المكانة المهمّة للرواية، وهذا الانتشار الواسع لها في عالمنا العربيّ، جعلني أنتقيها لتكون محور عمليّ. وقد اخترت الرواية اللبناينة "حيّ الأميركان" للروائيّ اللبناينيّ "جبّور الدويهي"، بعد أن تلمّست ارتباطها الوثيق بواقعنا العربيّ الحاليّ الذي أُطلق عليه "الربيع العربيّ"، فيما هو شتاء مدترّ قاس وعاصف... لقد استشفّ هذا الروائيّ في روايته هذه، الحياة في صورها الحقيقيّة. ولأنّه عاش القلق الوجوديّ، جسده فيها، فحكى عن قلق الإنسان وضياعه في سراب اليوميّ، أو المألوف القاتل، وتيهانه، بالتالي، بعيداً عن أصلته وكيونته الحقيقيّة... لقد كشف، من خلال هذه الرواية، عن رؤيته إلى عالمه، إلى مكانه، وإلى الوجود الحقيقيّ. ما جعل هذه الدّراسة تتمحور بشكل رئيس حول المكان والدور الذي أدّاه في الرواية، تحديداً من ناحية الوجود والكيونة...

والمكان يعني "مساحة (Espace) العمل الروائيّ أو مجاله. ويشمل المكان الروائيّ أمكنة الرواية جميعها وأشياءها كما يقدّمها الوصف المنتظم في سياق حركة تشكّل البناء الروائيّ، أي في سياق حركة الفعل الذي يجري فيها، كما يقول "جيرار جينيت" (Gérard Genette)، أن توجد الأماكن والأشياء من دون حركة، فإنّ الحركة لا توجد من دون أماكن وأشياء تجري فيها، وهذا الوجود المنتظم في سياق الحركة هو ما يمثّل المكان الروائيّ" (زرّاقط ١٩٩٩: ٩٩٧) والمتعارف عليه في الدّراسات الكلاسيكيّة "أنّ استعمال المكان كان للدّلالة على الإطار الذي تجري فيه الأحداث الدّراميّة، بينما الدّراسات التّقديّة الحديثة تتعامل مع المكان من زاوية نظر حدائيّة مخالفة للسائد الكلاسيكيّ."

(كتابات معاصرة ١٠٤: ٦٨) فدلالات المكان لم تكن موضوع اهتمام في التّظريّات التّقديّة القديمة، ولم تكن العلاقة بالمكان معياراً معتمداً في تقديم التّصووص الأدبيّة وتمييز جماليّتها. لكن في كلامنا على الرواية، بشكل خاصّ، نستطيع أن نقول، "لا رواية بلا مكان" (العيد ١٩٩٨: ١١٢). فالرواية يزداد اهتمامها بالمكان، خصوصاً الرواية العربيّة، لأننا، كعرب، نعيش في زمن فقدان المكان أو فقدان البيت الأليف، في زمن الحروب التي تحزّب وتهدم، زمن الهجرة والتّهجير... لذا نرى، أنّ "بعض الأمور تتراجع لمصلحة المكان باعتباره هو ذاته الحكاية" (العيد: ١١٣). والمكان "يساهم في خلق المعنى داخل الرواية، ولا يكون دائماً تابعاً، بل إنّه أحياناً يمكن للروائيّ أن يحوّل عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن الموقف من العالم." (لحمداني: ٧٠) فالمكان، في الرواية، "يُعتبر مسرحاً للأحداث، والحيّز حيث يتحرّك شخصووص الرواية ويعيشون، فتنشأ العلاقة المتبادلة بين المكان والشّخصووص، وتُمنح الرواية خصوصيّتها... فكلّ نصّ سرديّ ناجح له دلالاته المكانيّة، وهي أوّل ما يشدّد القارئ إلى الرواية." (التابلسي ١٩٩٤: ١٨) هذا الأمر يجعل الروائيّين، وخصوصاً المبدعين منهم، "يختارون أمكنتهم بوعي عميق، ما يسهم في إنتاج نصّ مغاير بعناصر متماسكة مرتبطة متفاعلة مع المكان" (التابلسي: ١٧)

وفي رواية "حيّ الأميركان"، يتبيّن لنا، وانطلاقاً من عنوانها، أنّها رواية المكان بامتياز. فالروائيّ دأب على رسم صورة المكان، ما جعله في بنائها الروائيّ، يتخذ موقعاً رئيساً، ويؤدّي دوراً فاعلاً، فيكون إضاءة أو إشارة أو رمزاً، وبذلك يتجلّى ويتحدّث. فكيف ظهر هذا المكان في هذه الرواية؟ ما كان دوره؟ كيف تمكّن من حمل المعنى؟ كيف بانّت العلاقة

بينه وبين المكان الحقيقي، بينه وبين الكينونة؟ هذا ما سنقاربه في هذه القراءة، وذلك في جزئين: يعالج الأول المكان وعلاقته بالخارجي الاجتماعي، فيما يركّز الثاني على المكان وعلاقته بالكينونة والوجود.

وقد اعتمدت في قراءتي هذه، المنهج الوجودي (The Existential Approach) من خلال تحليلية كلّ من "هايدجر" (Martin Heidegger) و "سارتر" (Jean-Paul Sartre) ونظرتهما إلى الكينونة والوجود. كما من خلال المنهج السيميائي السردّي، وهو منهج وصفيّ تحليليّ في قراءة داخلية للرواية النصّ، وهو قلّما يستعين بوقائع من خارجه. ما يقتضي الاكتفاء من السردية، بالرواية بوصفها حكاية، من خلال التركيز على المكان وأهميته وعلاقته بالمضمون الروائيّ وكيفية تفاعل الشخصيات فيه وتشكّل المعنى.

#### أولاً: المكان الروائيّ وعلاقته بالخارجي الاجتماعيّ.

لقد كان للمكان في هذه الرواية من المميّزات ما جعل له خصوصية معيّنة، أطرته ضمن إطار "المختلف". وقد تبين هذا الأمر من خلال الأفعال التي جرت فيه، إذ "لا يمكن تصوّر الفضاء الروائيّ من دون تصوّر الحركة التي تجري فيه" (زراقت: ٧)، كما من خلال الوصف الذي تعمده الروائيّ في مواضع مختلفة من هذه الرواية، والذي لم يكن له دور تزيينيّ، أو تمهيديّ للحدث، بل قام بالمعنى الروائيّ الذي يعبر عنه السرد، ما جعله شديد الالتحام به، قادرًا على تقديم واقع يعادل الواقع.

ومع أنّ هذه الرواية لم تخرج عن نطاق الحدود الجغرافية الواضحة المعالم، بحيث جرت معظم أحداثها في "حيّ الأميركيّ"، أحد أحياء مدينة "طرابلس" اللبناية، الفقيرة،

كما في أحد أحيائها الأخرى، إنّما الرّاقية، فيما بعضها القليل جرى في العراق و"باريس"، فالروائيّ سعى إلى التعبير عن جغرافيا الأمل وتاريخه في هذا الجزء من العالم، أي العالم العربيّ... وحاول أن يؤطر الوضع الذي تحيا عليه الأمة العربية والعالم الثالث، وهو نفسه الوضع الذي يحيا في ظلّه "حيّ الأميركيّ" تحديداً.

و"ذكر الأمكنة والأشياء، وبخاصّة في تفاصيلها، يوهم بالواقع، ويحدث ما يُسمّى "الأثر الواقعي". وتقتصر وظيفة بعض الأمكنة على إحداث هذا الأثر في حين يتجاوزها بعضه الآخر إلى أداء وظائف أخرى." (زراقت: ١٠١٠) ويلاحظ أنّ الأمكنة المذكورة في هذه الرواية (طرابلس، حيّ الأميركيّ، باب الحديد، الميدان، محطة القطار القديمة، مرفأ جونية، لبنان، مخيم اليرموك في دمشق، مخيم شاتيلا، بغداد، كارج المحمودية، سوريا، الحدود الأردنية، محطة اللوكسمبورغ، أورو ديزني، باريس...) تقتصر، بمعظمها، على أمكنة السكن والتنقل والعمل، وهذا يعني أنّ المعنى فيها مأسور في إطار الرّتبة والعاديّ والمألوف... هذا الإطار الذي يُحيلنا إلى إطار حقيقيّ سعى الروائيّ إلى تظهيره. فمع أنّ "المرجعّيّ الداخليّ - الأدبيّ لا يطابق المرجعيّ الخارجيّ - الاجتماعيّ، لأنّ للكتابة علاقة بالمتخيّل (الذهنيّ أو المفهوميّ)، أي بعالم يرتسم في المتخيّل وفق رؤية ما للحياة، لأنّ الإنسان يرى إلى العالم من حوله من موقع له في المجتمع، هو موقع إيديولوجيّ، أو وعي (فكريّ معيّن) منزاح لا يطابق واقعاً، أو مرثياً معيّنًا، ويختلف عن رؤية أخرى (أو عن وعي آخر لهذا الواقع)، أو لهذا المرثيّ نفسه..." (العيد: ٨)، فإنّ المكان الخياليّ، هنا، هو تخصيص لمكان آخر متمم للمكان الحقيقيّ الذي استحضره الروائيّ بشكل لم نبتعد فيه عن

الحقيقة والواقع. فالمكان، "بوصفه حقيقة كونية يدركها الإنسان خلال حياته اليومية لم يقف عند كونه مدرّكاً بصرياً ساكناً"، (الضبيح ٢٠١٨: ٤٧) إذ كان له "بعده الاجتماعي الذي يجعل من المساحة الكونية للمكان مساحات بشرية محدّدة بسمات اجتماعية تجعل لها بحق شخصية اجتماعية لها ملامحها المميزة والفارقة عن غيرها..." (الضبيح: ٨٩) لذا سيكون تعاملنا مع هذا النص الأدبي مستهدفاً مرجعه الحي، ومقترحاً قراءة يمارسها لا تعزل النص عن حوضه البشري الذي ينمو فيه ويحيا. فـ "المعرفة نشاط خلاق قائم في سياق التحوّل، كما هو قائم في بني النشاط المنحرفة نحو شكلها الخاص... والكتابة تنحرف نحو هيئتها الخاصة أو تتشكّل في نسق خاصّ بأثر من علاقتها بمرجع حيّ مُعاش." (العيد: ٨) فهذا المكان، وإن كان من تشكيل وعي المؤلف، إنّما تأسس كلغة على ما هو مرجعيّ.

إذًا، إنّ هذا المكان، بأبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ارتفع إلى مقام العلامة، فنشأ نصّ اجتماعي يدلّ على الفقر والقهر والإهمال والجهل والغربة التي يعيشها هذا المكان، بوجهيه: الحيّ الشّعبيّ والحيّ الرافقي، حيث نقرأ تهميشاً لمجموعة من البشر، وصوراً ملتقطه من واقع يعيش المأساة بكلّ معانيها. فالرواية "لا يمكن أن تكون خاوية ومهمّشة ومفرّغة من أهدافها ومن خلفياتها الفكرية والحضارية والتاريخية والسياسية والاجتماعية..." (كتابات معاصرة ١٠٥: ٨٦)

لقد بدأ أثر المرجعيّ الحيّ في بنية الشكّل والمعنى في هذه الرواية شديد الوضوح، ما جعله يتميّز بميزات عديدة، حوّلتها إلى جزء من العالم الحقيقيّ. وهذا يعود بشكل رئيس إلى الوصف الموضوعي الخالص الذي اعتمده هذه الرواية كما

بعض الروايات الجديدة و "الذي يُنشئ المعنى وحده، ولهذا أطلق على الوصف الذي يمثله الوصف الخلاق." (زرّاقط: ١٠٠٢)

لقد حضر المكان في هذه الرواية، فنقلته اللّغة إلى مستوى الخطاب حيث اتخذ دلالات الإيهام بالواقع، لقد حوّلتها اللّغة إلى فضاءات للموت واليأس والعدمية... وهكذا نهض المكان في النصّ، حتّى إنّه سرق البطولة من الشخصية وكان عاملاً في تنمية الحدث. وقد تكون الإشارة ذات الدلالة البالغة في هذا النصّ، أن يعطي المكان الرواية اسمها: "حيّ الأميركان"، ما يجعله يغور بعيداً في جذره الاجتماعيّ.

وقد تمثّلت القضية الأساس أو البنية الدلالية الكبرى في هذه الرواية في فقد المكان/الحضن، وذلك تبعاً لميزات عديدة، نذكرها على التّوالي منها: -

١- إطباق الفقر على المكان.

٢- سيطرة الإحباط على المكان.

٣- إهمال الأهل لأولادهم في هذا المكان.

٤- حضور الدّين المتطرّف في هذا المكان.

٥- غياب الدّولة عن هذا المكان.

١- إطباق الفقر على المكان.

يكشف المكان الروائيّ الواقع الماديّ والاجتماعي لعائلة لبنانية تعيش في "حيّ الأميركان" في "طرابلس، شماليّ لبنان، والذي يشي بعض تفاصيله الغارقة في "بؤس حاله الرّهانة بوجود حياة ماضية فيه قبل أن يجتاحه فقراء الجبال القريبة" (الدويهي ٢٠١٥: ٦). أهله فقراء ينتظرون موسم الانتخابات "ليُدفع وكلاء المرشّحين خمسين دولاراً لصاحب البيت فترفع على واجهته سببة خشبية عليها "بورترية" عملاق" (٦٩). يعيشون في بيوت حقيرة يتكوّم بعضها فوق

بعض، بحيث لا يُستطاع الوصول إليها إلا عبر أدراج عديدة تصعب المسير صعودًا، كما ويتشاركون الإيجار والسكن. شوارعه متسخة كأنّ غبارًا رماديًا هطل فيها على كلّ شيء (٩٢)، يملأها الشّخاذون والمتسكّعون وبسطات خشبية وعربات اليد التي يجرها غرباء فقراء (١٢). فهنا امرأة تحمل طفلًا هزيلًا مريضًا مغمض العينين، خرقة تستصرخ به المارة، تلوح به... وهناك بائع يفرش غابة من البضائع المستعملة، يستسي نفسه أبو الفقراء... (٩٣) كما تملأها براميل التفائيات التي تفيض فتختلط روائحها برائحة النّهر وبرائحة التّنباك... في ضواحيه حوض مياه عميقة يحيط به القصب العالي، يغطس فيه الأولاد عراة ويجرجون برائحة المجارير التي تصبّ في النّهر من جميع القرى العالية (٦٨). وما زاد طينة هذا المكان بلّة، تكاثر الغرباء فيه، الذين يسكنون في بيوت مهجورة ويهيمنون في شوارع الليل، أو يملأون المكان، صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساء، يحاصرون العابرين، يتمسكون بهم، يتوسّلون إليهم... (٢٤)

هذا المكان جعل كلّ من فيه، وحتى كلّ من يزوره فافدًا للرّاحة والاستقرار التّفسيين، فهذا هو "عبد الكريم" الثّريّ، يعود إلى بيته بعد زيارة لـ "حيّ الأميركان" "ساقط الكتفين كطائر مصاب" (٩٣).

هذا البؤس المستشري في أحياء المدينة القديمة كانت له، بحسب الرّوائيّ، علاقة وثيقة بالعنف وازدهار الحركات الأصوليّة (٢٤). لأنّ "السّلوك الإنسانيّ لا يتحدّد فقط بالعوامل التّفسيّة والفكرية والفيزيولوجيّة، لكنّه يتأثر أيضًا بالظّروف الاجتماعيّة والتّماذج التّفافيّة والأنماط الاقتصاديّة". (حيدر ١٩٩٤: ٢١٧) وهو حتّمًا محقّ في ما رآه، لأنّ الحاجة تقضّ مضجع صاحبها، وتجعله مستعدًّا للقيام بأيّ

عمل، أو لتبني أيّ فكر أو عقيدة، طالما أنّ هذا الأمر يسدّ جوعه، أو يكسو جسده الهزيل، أو يقوده إلى شيء من البجوحة أو الاكتفاء. والإرهاييون أو أصحاب الفكر المتطرّف يبحثون عن هذه الأماكن الرّازحة تحت وطأة فقرها وبؤسها، لأنّهم يجدون فيها أرضًا خصبة لاختيار الأتباع ولترسيخ التّطرّف في عقولهم.

## ٢- سيطرة الإحباط على المكان.

على الرّغم من أنّ المكان الرّوائيّ قد تحدّد في دائرتين: أولاهما "حيّ الأميركان"، وثانيهما المدينة حيث يعيش "عبد الكريم" ابن عائلة العزّام، إحدى العائلات الميسورة في المدينة، إلا أنّ هذه المدينة، مع انفصالها جغرافيًا عن "حيّ الأميركان"، لم تكن أفضل حالًا منه. إذ كانت المكان غير الأليف وغير الصّديق لإحدى الشّخصيّات الرّئيسة في الرّواية، أي "عبد الكريم". فهي لم تعد المدينة التي كما "في ما مضى من زمن، حاربت الانتداب الفرنسيّ وتضامنت وتظاهرت مع كلّ قضيّة عربيّة، مع ثورة الجزائر، وضدّ حلف بغداد... المدينة التي خرج أهلها عن بكرة أبيهم إلى الشّوارع يوم استقلال "جمال عبد النّاصر"، وقاد رجل من عندهم جيش الإنقاذ الفلسطينيّ عام ١٩٤٨"، بل تحوّلت إلى مدينة بدا كأنّ ربّها قد تخلّى عنها، فتقاسم النّفوذ فيها أمراء على الأحياء يدعمهم مشايخ يتنقلون في سيارات مصفّحة ومولعون بالخطب التّاريّة واستعراضات السّلاح... (٤٥) مدينة تشتعل فيها نيران الحروب والانفجارات، فيسقط القتلى بالعشرات حتّى تمتلئ برّادات المستشفيات بهم، فتتكدّس الجثث خارجًا في أكياس من التّايلون على الرّصيف، ما يملأ الجوّ بروائح لا تطاق، جعلت المعنّين يرقّمون القتلى ويدفنونهم سرًّا في مقبرة الغرباء... (٤٦) مدينة تُلزم أبناءها بمن فيهم "عبد الكريم"

على مغادرتها من دون تردّد، والسّفَر إلى فرنسا (٤٦). لقد غدت مدينة "ميّنة، تستيقظ متأخّرة وتتحوّل إلى مدينة أشباح بعد الثّامنة ليلاً. لقد أمست لا تحرك ساكناً، يشتري الأغنياء أصوات أهلها في الانتخابات، أغنياؤها تحوم الشّبّهات حول طريقة تجميعهم الثّروات" (٩٤)... مدينة لم يرغب "عبد الكريم" في أن يعود إليها إلاّ مرّة واحدة لحضور جنازة والده (٤٦ - ٤٧)، ومرّة أخيرة أُجبر على العودة إليها بعد أن خسر حبيبته في فرنسا. وفي عودته هذه، وجدها أسوأ ممّا كانت عليه... وجدها أرضاً جرداء فقدت الزّنار الأخضر الغامق الذي كان يحضنها كالأمّ من جهاتها الثّلاث (٩٩). وجدها وسط ليل تحدشه مصابيح الإنارة فوق أعمدة محلّعة... وجدها وسط موبقات كثيرة بحيث لا يصله من الرّوائح المبعثرة فيها سوى مازوت السيّارات العموميّة العابرة، ومن الأصوات غير هدير مولّد الكهرباء في البناية المجاورة، وإذا أنصت جيّداً يسمع صوت زيز ليل من بقايا بساتين اللّيمون لا يزال تائهاً وسط الأبنية المتكاثرة. (٩٠) وجدها مدينة خلّت من شريحة سكّانية أساسيّة فيها، بعد أن باع المسيحيّون كلّ ما يملكون... (١٤٦)

في هذا المكان، عاش "عبد الكريم" الإحباط والضّياع والجمود... فعند وصوله إليه "أمضى اللّيل منبطحاً بالعرض على سريره، بثيابه وحذائه، رجلاه تتجاوزان حافة السرير، كما كان يفعل في نوبات حرده زمان المراهقة". وعندما استفاق متأخّراً، انقلب على ظهره واضعاً يديه تحت رأسه، مستلقياً في عتمة غرفته لا يعرف من أين يبدأ ولماذا يبدأ. لقد أمضى، في هذا المكان، أيّاماً كثيرة "لا يأتي صوتاً ولا حركة" (٢٠)، يدمن على ما ينقله إلى عالم آخر بعيد عن المكان والزّمان لا يبغى أن يصحو منه كعالم الكحول،

والأحلام الكتبيّة (٤١)، والأصوات النّسائيّة التي يتركها تصدح في البيت، والجلوس لترميم أشجار البونزاي (١٩)... وهو، كان يرى في هذا الإدمان علاجاً يوميّاً يشعره بأنّه يعيد الوصل بسنوات نعيم هوى عاشه خارج هذا المكان، وسبباً إلى بعض راحة، كلّما مال مزاجه إلى السّواد أو شعر بالوحدة (١٨، ٩٠، ٩٥ - ٩٦). هو، في كلّ حال، ما عرف، في هذا المكان، الاستقرار والهناء بل المهزّمة والإحباط، حتّى غدا، بالنّسبة إليه المنفى لا الوطن، الغربة لا الانتماء...

إنّما كوة الأمل الوحيدة التي يمكن فتحها في جدار أصمّ من السّلبات، أنّ "عبد الكريم"، وفي هذا المكان تحديداً، لم يقبل التّطرّف الدّينيّ، ما جعله ينقبض عن "انتصار"، والدة "إسماعيل"، مؤنسته الوحيدة، "كأنّه فجأة، يوم دخولها البيت واضحة لرغبة ابنها مرتدية هذا اللّباس البّي اللّون السّميك والواسع، لم يعد يراها، أضرب عنها، نزل ستار بينهما" (٢١)... وهذا الواقع قد يُثبت المعادلة السابقة، وهي أنّ الفقر يشكّل البيئة المناسبة لتأسّس الإرهاب وعمّوه وتطوّره، فيما نادراً ما يطال الأغنياء والميسورين...

### ٣- إهمال الأهل لأولادهم في هذا المكان.

إنّ الأسرة، وهي "من أهمّ مصادر القيم السّائدة في المجتمع العربيّ" (حيدر: ١٩٩٤: ٢٥٧)، "تعتبر المؤسّسة الأولى التي تقوم بمهّمة تنشئة الأجيال الطّالعة وإعدادها للعيش والعمل في المجتمع عن طريق تكوينها لشخصيّة الفرد وتفكيره" (حيدر: ٢٥٣). وهي "تعتبر نظاماً فرعياً يُنظر إليها كنموذج مصغّر للمجتمع القوميّ بمقدار ما تؤدّي وظيفتها" (زما: ١٩٩١: ٢٠). أمّا الأسرة، في رواية "حيّ الأميركان"، فقد غابت غياباً تامّاً عن مسرح الأحداث، أو حضرت حضوراً سلبياً كان له اليد الطّولى في تخريب حياة الشّخصيات.

لم تمتلك عائلة "بلال محسن" الحد الأدنى من شروط العائلة السليمة. فالوالد تائه عن أولاده في عالم آخر بعيد عنهم، وقد شاده لنفسه كي لا يبقى أسير واجباته العائلية. فلم يقدم صورة الأب الذي يرمى أبناءه، ويرافق نموهم، ويدعوهم إلى الخير والصلاح وإثبات الذات. فكان يترك البيت لأيام عديدة، من دون أن يُعلم أحدًا بمكان وجوده، وقد شارك في أحداث "باب الحديد". وهو إن عاد إلى البيت، فلكي يضاجع زوجته أو لكي يتابع مباريات النساء في المصارعة، أو دوران الجميلات الرشيقات على محطة الموضة (١٠).

أما الأم فكانت رازحة تحت وطأة تأمين القوات لأولادها. تذهب إلى دارة آل عزّام في المدينة لكي تنظفها وتدبر شؤونها، فتمضي معظم ساعات النهار فيها. ما جعلها غافلة عمّا يفعله أولادها أو عمّا يواجهونه أو يتعرّضون له. فابنها "إسماعيل" يختفي من دون خبر (٩)، وعندما يغادر البيت تقول "أخذوه" (٢٢)، لأنها حتمًا لا تعرف من أخذه، وإلى أين... أو لأنها تخاف من ذكرهم... وعندما تُرد إلى أدراج الحارة وأزقتها، دخل عصابة "أولاد الأميركان" حيث مرّ بامتحان في ليّ السواعد وإعادة إشعال أنصاف السجائر المرمية أرضًا والتحرّش بالفتيات (٦٥). وهو كان يمضي الليل ساهرًا على الأدراج مع هذه العصابة جالسًا في وضعيّة تشبه وضعيّة والده الذي كان يطوي ساقه أمامه، ويطوقهما بيديه يتشائم مع رفاقه أو يخطّطون معًا لأفعال غير محمودة (٦٧)، ومنها سرقة أحد الشيوخ (٦٨)...

أما الصبيّ الثاني فيُرسل إلى ورشة تصليح السيّارات يأكله الشحم والزيت ويخشن مع رفاق السوء (١١). فيما الصبيّ الصّغير يذهب إلى مقهى الإنترنت، يمضي وقته في

اللعب والنظر إلى الصّور الإباحيّة، وأخوه الأصغر المريض واقف وراءه يتفرّج عليه ويتعلّم منه الرذيلة (٩).

لقد افتقر الأولاد، في هذه العائلة، إلى من يحتضنهم ويرشدهم إلى الصّواب، إلى من يحميهم من شرور كثيرة محيطة بهم يفرضها عليهم المكان حيث يعيشون. لقد كانت عائلتهم، بدائرتها الضيقة (الأم والأب) والواسعة (الحال الذي يغرق في إدمان الكحول (٦٥)) بعيدة عنهم، تائهة في غيبوبة عن المكان وعمّا يحصل فيه... ما جعل الأمور تزداد سوءًا، مسهّلة على زعماء الجمعيات الدنيّة الانقضاض على فرائسهم المساكين وإيقاعهم في شباكهم...

#### ٤ - حضور الدّين المتطرّف في هذا المكان.

إنّ الشريعة، في اللّغة، هي مصدر لفعل "شرع"، وهي تُطلق على معنيين أحدهما هو الطّريق المستقيمة... وفي الاصطلاح، هي تعرّف ما شرّعه الله لعباده من الأحكام التي تُصلح أحوال النّاس في الدّنيا والآخرة... والشريعة الإسلاميّة ما جاءت إلّا لحماية حقوق الإنسان، ولحمايته من نفسه ومن نزواته وشهواته... (الفتلاوي ٢٠٠١: ٥) أمّا في "حيّ الأميركان" فقد استغلّت هذه الشريعة لنشر فكر غريب عن هذا المكان، فكر تحريبيّ غرائبيّ، يدمر البشر والحجر، وينقص على التّراث والعادات والتقاليد... وهذا يقودنا إلى واقع أنّ المشكلة ليست مشكلة الدّين، إذ يجب أن نفصل دائمًا بين الدّين والاستغلال السياسيّ له... (الجابري ٢٠١٩: ١٨٨) فالمكان، في الرواية، يضيّع صورته القديمة ويلبس زيًّا جديدًا غير أصيل تهيمن عليه أشكال مستوردة لا علاقة لها به. إذ يغدو مكان استقطاب لغرباء أتوا إليه من كلّ حذب وصبوب لينشروا دينهم وفكرهم الغريبين عن المكان وأهله. فشيخ عائد من "باكستان" يدور في أزقة الحيّ ويصعد أدراجه

محرّضًا. تارة، يقول إنّ تصوير كلّ ما فيه روح من الإنسان حرام، لأنّ، في ذلك، مضاهاة لخلق الله، وطورًا، ينتقد شراء الأصوات في الانتخابات داعيًا إلى رفض الاقتراع برمته، لأنّه مخالف لأحكام دولة الإسلام. والشّبّان يصغون إليه، وبعضهم يتحمّس كـ "إسماعيل" فينظّم العمليّة ليلاً، فلا يطلع النّهار إلّا وقد نال القسم الأكبر من صور المرشّحين حصّته تزييفًا وتشويهًا... (٦٩) فيما شيخ آت من "جزر القمر" يعلم النّاس أنّ "الجهاد لم يعد فرض كفاية بل فرض عين، نظرًا إلى ما تتعرّض له أمة الإسلام في "العراق" من عدوان ليس بمقدورها دفعه وحدها، فيعمّ الواجب جميع المسلمين من أقرّبهم منها إلى أبعدهم" (١١٤). وكذلك أخ من "الجزائر"، وأخ من "الصّومال" (١٢٠)... وتؤسّس جمعيات دينيّة لأجل هذه الأهداف، فيفجّر "إسماعيل" عبوة في مصلى البوذيين (١٠٨) متسرّجًا هو وشركاؤه في "حيّ الأميركان" بجمعيّة "الهداية الإسلاميّة" (١٠٩)، التي اشتهرت بسرعة، وحُكي عن أموال وفيرة تصلها (١١٥)... ويصير الجامع مكانًا لتجنيد الشّبّان وإرسالهم في مهمّات جهاديّة (١١١)...

لقد بدّل الدّين المكان بحيث بات على كلّ من يريد السّهر أو مجرّد دعوة أصدقاء إلى العشاء، أن يخرج إلى إحدى البلدات المسيحيّة. ومن طمع في بذلة أنيقة اضطرّ إلى التّزول إلى العاصمة، مدارس الإرساليّات هجرت المدينة وتضاءل عدد المسيحيّين، كانوا يحملون الأيقونات ويقومون بزيتاحتم في الشّوارع، فيقف التّجّار في أبواب محالّهم احترامًا. لقد تحوّل المكان أرضًا خصبة للإرهاب، فحضر التّطرف والإرهاب فيه وانطلقا ونموًا... وظاهرة العنف تعتبر "من أقدم الطّواهر التي عرفها الإنسان في تاريخه، وإن كانت قد شهدت في بعض العصور رواجًا وازدهارًا. وهذه الظّاهرة تبدو اليوم

محمولة على دفقة جديدة من التّصاعد الرّهيب في أنحاء المعمورة فاطبة بما يبعث على القلق" (كتابات معاصرة ٨٨: ٢٥)، خصوصًا بعدما أصبح متجلّيًا في شكل كبير في مجتمعاتنا العربيّة المعاصرة. والعنف، في دلّالته كما ورد على لسان كبار اللّغويّين العرب قديمًا وحديثًا، وعلى رأسهم "ابن منظور" يعني الخرق والتّعدي؛ وهو ضدّ الرّفق. ويُرّبط بين العنف والإيديولوجيا في الكثير من مظاهر العنف العصريّ بوصفه عنفًا باسم إيديولوجيات معيّنة. (كتابات معاصرة ٨٨: ٢٦) أمّا الإرهابيّ فالمعنى اللّغويّ لهذه الكلمة يتأطّر في من لجأ إلى فعل التّرهيب والتّخويف. وهو "المرعب، أي الذي يقوم بعمليّات قتل من طرف واحد تُرعب النّاس. ومن صفاته أنّه يقتل أناسًا مع سبق الإصرار، وهدفه قتل أكبر عدد ممكن وبثّ الرّعب في الأحياء بغضّ النّظر عن النّيّة." (شحرور ٢٠١٧: ٢٤) ويمكن معالجة مفهوم الإرهاب كأحد إشكالات العنف السّياسي، بحظورته المتصاعدة من دون التّمييز بين الأفراد، مع الآثار الاقتصاديّة والاجتماعيّة والنّفسيّة التي يخلفها. (كتابات معاصرة ٨٨: ٢٧) وإذا بحثنا في تاريخيّة الإرهاب ونقّبنا عن أهمّ التّنظيرات التي خصّته نجده حديثًا، لكنّه، كممارسة، هو قديم قديم الإنسان. وقد ورد مفهوم الإرهاب، أوّل مرّة في العام ١٧٩٨، في قاموس الأكاديميّة الفرنسيّة. وظهر بظهور الدّولة الحديثة، خاصّصًا لقوانين سوسيلوجيّة وسياسيّة محدّدة مقترنًا بالعنف العدمي، ساعيًا إلى تدمير هذه الدّولة، وإلى الوقوف ضدّها لها معتمدًا الضّرب الأقصى من العنف. وهنا يمكن أن نشير إلى المفكّرة "حنا أرندت" (Hannah Arendt) في كتابها الشّهير "في العنف" (On Violence) الذي بيّنت فيه أهمّ الفروق بين العنف والإرهاب، حيث إنّ الفرق بينهما

”كالفرق بين الإرهاب الديكتاتوري الذي يقوم على الاستبداد، والإرهاب التوتاليتاري الذي يضرب الأقرب إليه“ (كتابات معاصرة ٨٨: ٢٧)، كما حدث، إبان السنوات الأخيرة، في مصر والجزائر والمغرب والعراق وسوريا ولبنان... (أميركا وحركات الإسلام السياسي منذ سبتمبر ٢٠١١) والإرهاب الديني، وهو الأكثر انتشارًا الآن في العالم الإسلامي، وهو وإن كان معظمه توتاليتاريًا من حيث طبيعته، إلا أنه ظاهرة خاصة بنوع المجتمعات التي تسعى إلى الحدادة واكتساب طرائق العلمانية، أي المجتمعات التي تبحث عن التغيير سواء أكان ماديًا أم معنويًا.“ (كتابات معاصرة ٨٨: ٢٧) وإذا كان العنف سلوكًا غير رسمي يسعى إلى حل تناقضاته بالقوة، فإن الإرهاب هو الشكل اليائس للمنخرطين فيه. فالعنف الإرهابي هو أقرب إلى الانتقام والاقتصاص. (علوش ٢٠١٥: ٣٥)

وفي "حي الأميركيان"، عثش الإرهاب ونما العنف، إذ سيطر المتطرفون على المساجد، وطردوا منها الخطباء الذين يُجْمون عن الدعوة إلى الجهاد كيفما اتفق. نَقَبوا نساءهم بالأسود، كَفَرُوا وحَرَمُوا، هَدَدُوا المزيّنين النسائيين، ومنعوا الأطباء الرجال من معاينة النساء، ونَحُوا من يكسر الصيام علانية، وطاردوا شاربي الكحول على حواجز أقاموها عند مدخل المدينة، يُنزلون من يشكّون فيهم بعد شم رائحتهم، كدّسوا المال في حساباتهم الشخصية، ومدّوا بالسلاح زمرة من المرافقين، وأرسلوا الشبان إلى القتال في جبهات لا يعودون منها، بتسميتهم من دون استشارتهم (٩٥)، بعد تجنيدهم للجهاد بشكل مباشر أو على شبكة الإنترنت (١١٧-١١٨)... أو اختيارهم عبر الجمعيات... ف "أبو مصعب" كان يختار الشباب المجاهدين من خلال مركز "جمعية الهداية

الإسلامية" لمصلحة جماعة أخرى تدعى "جند الصحابة" (١٢٧).

و"إسماعيل" كان كسواه من الشباب الذين وقع الخيار عليهم. فبانت في سلوكه تلك الجمدة التي تكاثرت الإصابة بما لدى شبان يهتدون في آخر العقد الثاني من العمر... صار يمشي مطرفًا لا يسرع الخطى... وصار إذا كلم رفاقه فلكي ينهاهم عن هذه وتلك من أفعال اعتادها معهم... صار يتابر على الصلوات الخمس... يقوم فجرًا للوضوء والزكوع.... يحتفظ بالمصحف تحت محذته... من دون أن يرفع نظره نحو النساء... ويمتنع عن التسليم باليد عليهن... لقد تعيّر سلوكه (٧٢)، فغدا لا يقبل بدخول الخمر إلى البيت (٧٤)، وفرض على والدته صوت الأذان كرتة لها تفها (١٣)، واشترى لها ثوبًا شرعيًا، تحت ذريعة أنّ النساء يجب ألا يرتدين ثيابًا ضيقة (٧١). وهي رضخت لرغبته مرتدية هذا اللباس البني السميك والواسع (٢١)... لذا، نراه قرّر بألا يموت في "حي الأميركيان"، بل في الجهاد في سبيل الله وأمة الإسلام (١٢٢). وهكذا، تقرّر إرساله جنوبًا "لوضع حرب" الأعماق هذه موضع الفعل (١٢٧). فنقلوه إلى بغداد من طرق يستحيل عليه حفظها... وأدخلوه غرفة أفلوا عليه فيها من الخارج، طالبين منه عدم مغادرتها. وفيها كل ما يلزم وتلفاز وتسجيلات لعمليات استشهادية وتلاوات قرآنية. يزوره كل يوم أخ يشرح له مكونات الحزام الناسف (١٢٧ - ١٢٨). وهذا الدين الغريب عن "حي الأميركيان"، كان يسلب إرادة ضحاياه ويحوّطهم إلى سجناء مأخوذين بتعاليمه وزعمائه... لقد كان هذا الدين يعتبر كل مجاهد شهيدًا، فيكتب على اللآفتات والجدران: "الشهيد البطل إسماعيل محسن"، "كلنا إسماعيل" (١٣٥)، "بالزوح بالدم نفديك يا

شهيد" (١٤٢)... كما كان يُكرم أمّ الشَّهيد فُتْعَى مألًا (١٥٢)... وهو، بهذا طبعًا، يسيء إلى معنى الشَّهادة مع ما تحمله من رفعة وسموّ...

وك "إسماعيل"، كان هناك العشرات في "حي الأميركان"، ومن الوافدين إليه، كالموريتانيّ الذي جاء من "موريتانيا" وكان مستعدًّا لملاقاة وجه ربّه في أيّ ساعة، لا بل كان متشوّفًا إلى ذلك وينتظر، ينام ويصمت وينتظر، يقرأ القرآن بصوت مبهم... خرج فجأة في يوم ربيعيّ ممتطيًا دراجة نارّيّة حطّ بها في حفلة عرس صاحبة يقيمها أكراد في قرية "طوز عكرون" بالقرب من "خانقين"... وفجّر حزامه التأسف فأباد الجميع (١٢٣).

وقد كانت هذه النزعة الدّينيّة المتطرّفة مسيطرة على المكان، بحيث لم يعمل إلاّ صوت واحد معارض لها ومدّد بها. لقد كان الشَّيخ "عبد اللطيف" الصّوت المعارض الوحيد الذي لم يتمكّن من رفع صوته، بل راح يهمس في أذن من يثق بهم أنّ أصحاب اللّحي هؤلاء هم الانحطاط بعينه (١٠٩)، وأنّ الجهاد الأكبر هو جهاد المرء ضدّ ذاته... وأن ليس للإسلام أعداء أكثر ضررًا من بعض المسلمين، في إشارة واضحة إلى جماعة الهداية (١١٠)... إلاّ أنّ هذا الصّوت لم يتمكّن من إسكات الأصوات النّاشزة المحيطة به، بل سكت هو، وسكت معه الفكر الدّينيّ المنفتح...

وأن تأتي نهاية الرّواية مفتوحة (عدم معرفة مصير "إسماعيل" بعد هربه من بيت آل العزّام، وعدم إفصاحه جهازًا بتخلّيه عن هذا الخطّ التّكفيريّ)، فهذا يؤكّد استمراريّة هذا الفكر الإرهابيّ التّطرّفيّ، وامتداده في التّاريخ وانفتاحه على المستقبل... ذلك لأنّه فكر متجدّد في الشّرّ، متعلّب على الخير، ينادي الغريزة، غريزة الوجود والبقاء من خلال الدّين،

غريزة هي الأقوى والأبقى، إذ يرى الإرهابيّ أنّ لديه قضيّة كبرى تتفوّق على وجوده وكيانه، وبالتالي، تستحقّ الموت. لذا، نراه مستعدًّا لأن يفدي الأُمّة الإسلاميّة بحياته، مهما كان الثّمّن. فطالما أنّ المكان لم يتغيّر، فالأفعال والأفكار والعقائد ستبقى على حالها. وهذا ما يبرّر تجدّد الأصوليّة الإسلاميّة، وحركات الإحياء والإصلاح والتّطرّف الدّينيّ الملازمة لها... والتي جعلت من التّنوع الدّينيّ والطائفيّ والعربيّ سبب ضعف وشقاق واقتتال، لا مصدر إثراء ومنعة وانبثاق فكر قوميّ جديد قائم على الوحدة والتّآلف وقبول الآخر، فكر متحرّر، واع لما يُخطّط لهذه المنطقة العربيّة...

#### ٥- غياب الدّولة عن هذا المكان.

لم تحضر الدّولة في رواية "حيّ الأميركان"، وبالتالي في "حيّ الأميركان"، إلاّ بوجهها الضّابط والقمعيّ، تراقب، تعتقل، تحتجز، تعذب السّجناء (١١٣)... لكنّها لا تحتضن ولا تحمي، لا تحطّط ولا تبادر، لا تصلح، ولا تبني... ف"حيّ الأميركان" الذي سميّ بهذا الاسم نسبة إلى المدرسة الإنجليزيّة المهجورة، كان مرتعًا طوال سنوات لفرع ما يسمّى جهاز "المخابرات الجوّيّة" المهوبة الجانِب، والذي تمركز في مباني المدرسة المتهالكة (٥). كما كان مرتعًا لخليّة المعلومات التي راحت تتبّع حركة الاتّصالات الخاصّة بمئات "انتصار"، ولمخبرين يتعمّقون أخبار "إسماعيل"... ويراقبون منزل آل العزّام على مدار السّاعة (١٤٨ - ١٤٩)...

ناسه يشعرون بأنّهم أعداء الدّولة، أو بأنّهم دون مستوى المواطنيّة، كمن ولدوا وسلاح الدّولة مصوّب إلى رؤوسهم (١٣٧ - ١٣٨). يحصل القتل في هذا المكان ولا سبب واضح له: قتيلان مرميان في النّهر، شاتان جرفتهما

المياه نزولاً إلى حيث يتحوّل النهر ساقية صغيرة، فاستقرت تحت الجسر وبقع الدّم الأسود تلتخّ ثيابهما (٤١).

لقد كانت هذه الدّولة غارقة في غيبوبة، بحيث يؤتى بالشّباب من الوطن ومن خارجه، تُغسل أدمعتهم ويُزرع فيها التّطرّف، ثمّ يُرسلون إلى محيّم "عين الحلوة" الفلسطينيّ في الجنوب، هذه الجزيرة الخارجة عن سلطة الدّولة، ليتلقّوا التّدريب العسكريّ والقتاليّ والإرهابيّ فيه كالمغاربيّ الذي اختار القتال في الميدان، كما يسمّونه. فأرسلوه دعماً إلى مدينة "الفلّوجة" المحاصرة من رجال البحريّة الأميركيّين... (١٢٤)

هذا ما كانت عليه صورة المكان في ارتباطها بمرجعها الخارجيّ الاجتماعيّ، وفي تعبيرها عنه. فكيف ستكون صورة المكان في علاقته بالوجود والكيونة؟ كيف سيكون واقع الدّات في هذا المكان؟ هذا ما سنعالجه في القسم الثّاني من هذه القراءة.

#### ثانياً: المكان وعلاقته بالكيونة والوجود.

إنّ الوجود يعني "أن نكون" (أيوب: ٢٠١١: ٢٥٠)، فيما الموجود هو "كلّ ما نتحدّث عنه ونفكّر فيه وتصرّف إزاءه، بل إنّه ما نحن عليه والطريقة التي نصير بها إليه." (أيوب: ٢٠٣) ويكون "وعي الإنسان لوجوده الواقعيّ هو النّافذة التي تطلّ على الكيونة". (أيوب: ٢٠٣) ولينشئ "هايدجر" نظريته حول الكيونة يلجأ إلى الموجود الإنسانيّ، يصفه في حياته اليومية، لأنّ "الإنسان هو وحده من بين الكائنات يتساءل عن وجوده المفرد وعن الوجود عموماً". (أيوب: ٢٠٣) لذا سنعود، في هذا الجزء من الدّراسة، إلى ما هو يوميّ في حياة إنسان هذه الرّواية، لنعاين وجوده وكيونته.

و"لأنّ النّصّ الأدبيّ هو نظام إشاريّ دالّ، وهو بناء لغويّ، واللّغة فيه متكلمة عن ذاتها ومتكلمة عن الأشياء خارجها وفق الصّورة التي ترى بها الأشياء". (كتابات معاصرة ١٠٥: ٨٥) و"لأنّ إشكاليّة الإنسان في المكان هي إشكاليّة وعي الدّات بوجودها وإمكاناتها، وحقوقها، وهي مشكلة وجوديّة" (كتابات معاصرة ١٠٥: ٨٥)، كان لا بدّ من النّظر إلى علاقة المكان بالدّات، وكيفية رسمه لكيونته ووجودها، والنّظر في ظاهرة الوعي ممّا يسمح بتحديد علاقة هذه الدّات بمحيطها، بنفسها، واستخلاص معاني الوجود في ذلك الموقف، على تلك الهيئة، في ذلك البعد الاجتماعيّ، الثّقافيّ والسياسيّ وغيرها من الأبعاد الفاعلة... فعندما "يصير المكان الرّوائيّ شخصيّة، فإنّه يمتلك لغة وعملاً ووظيفة، وربّما الوظيفة الأساسيّة". (زراقت: ١٠٠١) و"اللّغة حين جعلت الكائن والمكان والكون والكيونة والمتمكّن والأماكن تجتمع كلّها في جذر لغويّ واحد هو "كون"، إنما كانت تعضد هذا الالتقاء... ف "اللفظ" كان "الدّالّ على الكيونة في تماسّه الاشتقائيّ مع المكان وخروجهما من مادّة واحدة "كون" يأتي معبراً عن علاقة المكان، بوصفه موضعاً، بكيونة الإنسان في المقام الأوّل". (الصّبغ: ٤١-٤٢)

وانطلاقاً من وصف المكان في الرّواية، ومن حركة الشّخصيّات داخله، يتبيّن لنا أنّ هذا المكان الرّوائيّ ينظم في دائرتين: أُولاهما "حيّ الأميركان"، والجزء الأرقى من المدينة (مدينة طرابلس)، وثانيهما العراق وباريس. فالمكان الأوّل اختلف من حيث طابعه وجغرافيته ونوعيّة الأشياء الموجودة فيه. وقد جاء ضيقاً ومغلغلاً، لم يستطع أن ينهض بشخصيّاته وأن يذهب بها إلى كيونة أصيلة تتحقّق فيها الدّات تحقّقاً

خيرًا ومنيرًا، بل جعلها تعيش في نوع من السجن... وذلك يرجع طبعًا لأسباب جوهرية تعود إلى ما يمتلكه هذا المكان من ميزات، سبق وذكرناها. فيما الثاني جاء منفتحًا طليقًا، تمكّن من أن يأخذ الذات فيه إلى ملامسة كينونتها، وإن لفترة وجيزة، وذلك تبعًا لما أنجزته هذه الذات من أفعال فيه.

#### ١- المكان يُغرق الذات في وجودها اللاأصيل.

طالما أنّ الإنسان "يعبر عن ذاته بكلمة حتى بألفه مسالكه وأكثرها سطحية، وبالتالي، لا توجد أيّ هواية أو نزوة أو فعل إنسانيّ ليس كاشفًا" (أيوب: ٢٥٠)، فنحن عاينًا أفعال مجموعة من الشخصيات، ولاحظنا أنّ هذه الشخصيات تبادت في قبوعها عند قارعة هذا الوجود، بعيدًا عن أصلاتها، وعن تحقيق أيّ مشروع، كونها لم تفهم وجودها، ولم تسع لفهمه. فنحن "لا نستطيع القول عن شخص إنّه حقق مشروعه الأساسيّ إلاّ عندما نستطيع أن نفهم كيف فهم الوجود" (أيوب: ٢٤٩).

وقد بدت هذه الشخصيات سكوتية في وجودها المنغلق، لا تأتي أفعالًا، ولا تبغي رغبات، ما جعلها غير موجودة. فالوجود بالنسبة إلى الإنسان هو الفعل، والتوقف عن الفعل هو توقف عن الوجود. إذا لم يكن الفعل حركة خالصة، فإنّه يجب أن يتحدّد بقصد، إنّه تجاوز للمعطى إلى نتيجة مختارة أو مطلوب تحصيلها. (أيوب: ٢٤٥) فالاختيار هو، إذاً، اختيار للذات ولطريقة الظهور في الوجود، وللوجود في العالم، وللعالم، إذ ليس هناك أفعال عرضية.

ف "عبد الرحمن بكري" وهو جار "بلال" و"انتصار"، وبالتالي هو من الشخصيات الثانوية في هذه الرواية، لكن، مع هذا، فقد خصّص له الروائيّ مساحة من الرواية، أصرّ، من خلالها، على تعريفنا إلى هذا النوع من

الشخصيات المسترخية واللامبالية، التي تعيش في كنف "حي الأميركان". فهذا الرجل إنسان يعيش بلا غايات، وبالتالي بلا وجود مميّز، إذ إنّ "وضع المرء غاياته النهائية هو الذي يميّز وجوده". (أيوب: ٢٤٣) فهو "المتمترس في مقعده الأبديّ" (١٠)، "يتابع مباريات النساء في المصارعة أو دوران الجميلات الرشيقات إلى ما لا نهاية على محطة الموضة (١٠). يجلس طوال النهار على قفاه ويحكى (١١٧). يهجر البيت لأيام من دون إنذار ومن دون سبب معلن (٨) حتى لقبه "المشقوق" هو لقب يرادف الموت، والأسوأ أنّ كلّ ما عُرف في هذا الإطار، أنّه لُقّب بهذا اللقب لأسباب عائلية ضاع ذكرها". (٥)

لم يكن هذا الرجل في حركة لصناعة ذاته، بل "في حال من التنازع الدائم بين الضياع في ابتذال اليومية وتفاهتها وثرثرتها متجنبًا المواجهة لتحقيق وجوده الأصيل، لأنّ اليومية تجعل وجوده وجودًا لا وجه له ولا شخصية" (أيوب: ٢٠٥). هو لم يسع حتى إلى أن يتغيّر، إذ كان عبدًا لعادة يومية بدأت تتحكّم فيه منذ شرائه التلفزيون الملون العريض. وتعتقد زوجته أنّه ربّما لن ينهيه عنها سوى الموت (٥). ينسى آلة التحكم عمدًا في جيب سترته ليضمّمها تاليًا إلى مفتاح باب البيت الخارجي (٧)... وهذا ما جعل من وجوده وجودًا لأصيلًا، وجودًا ساذجًا هامشيًا، "فالوجود اللاأصيل، بحسب "هايدجر" هو الذي لا يحسن بأيّ عبء أو ثقل..." (أيوب: ٢٠٥)

أمّا "بلال محسن" فهو والد "إسماعيل"، وزوج "انتصار". وهو لا يختلف كثيرًا عن "عبد الرحمن بكري"، إذ إنّه لم يكن واعيًا أو فاعلًا أو مؤثرًا في وجوده. وكيف له أن يكون غير ذلك، طالما أنّه أسير ماضيه الهشّ الخالي من أيّ

إنجاز أو فعل أو غاية؟ ولا يمكن للمرء "أن يؤسس لوعيه طالما هو لا ينفى ماضيه بل يظل قابلاً فيه: الوعي لا يتأسس إلا بنفي الماضي - الشئ الذي يمثله الوجود - في - ذاته عند "سارتر"، والوجود للأصيل عند "هايدجر". (أيوب: ٢٤٢) لم يكن "بلال محسن" في حركة دائمة لصناعة ذاته، ولا في حالة قلق، "ذلك أن القلق هو الوعي بأن المرء هو مستقبله على نحو ما ليس يكونه". (أيوب: ٢٤٤) ف "سارتر" يستخلص بنية الإنسان استناداً إلى مفهومه للحرية وهي "ألا أكون من أكونه، وأن أكون ما لا أكونه". فما هو كائن لا يأخذ معناه إلا في مجاوزته نحو المستقبل، والماضي لا غنى عنه لاختيار المستقبل بوصفه ما ينبغي تغييره. (أيوب: ٢٤٤) وبين ماضي "بلال محسن" ومستقبله يبرز الحاضر، حاضر مقيد بالماضي، مأسور بالعدمية وباجتراح هذا الماضي، حاضر فاقد لوجهه، تائه في اللانجيز وغياب المشروع - الهدف. يقول "سارتر": "أنا لست شيئاً آخر غير مشروع ذاتي وراء موقف معين" (أيوب: ٢٤٥). والإنسان يتكوّن من مشروعه الخاص الذي هو نوع من التأليف بين ما هو - في - ذاته، أي الأصاله، وما هو - لذاته، أي الأصاله. وهو تأليف بين الكينونة الثابتة والوجود المتحرك. إنه حاضر يعيش في حال من التنازع الدائم بين الضياع في ابتداء اليومية وتفاهتها وثرثرتها متجنباً المواجهة، والتخلص من ال (هم) لتحقيق وجوده الأصيل.

ف "بلال" كان عاطلاً عن العمل (٥١)، ألح على ابن عمّه أن يأخذه إلى "باب الحديد" في آخر فصل دمويّ دار هناك، من دون أن يدري يومها أنّ مثله مثل من ذهب إلى الحجّ والنّاس راجعون. كان المتمردون هناك في حاجة ماسّة إلى الرجال، فصاروا يقبلون كلّ متطوع. لم يوكلوا إلى "بلال"

مهمّة محدّدة. كان يستلقي أرضاً يدخن من دون انقطاع، جميعهم يدخنون من دون انقطاع، ويصغون إلى توجيهات الشّيخ "عماد" الملتحي... (٥٢) تردّد إلى جمعية خيرية فاشتغل فيها مقابل غرفة صغيرة ينام فيها ليلاً... ليس له أصدقاء... يهيم حاني الرأس حتّى ارتطم ب "انتصار" (٥٩)، مع ما يحمله فعل "ارتطم" المستخدم هنا من عبثية خيار الزّوجة من جهة، والإقدام على مشروع الزّواج، وهو مشروع مهمّ في الحياة، من جهة ثانية. تضعه زوجته كلّ يوم أمام عجزه. لا يشهر إفلاسه الدائم بإخراج جيوبه الفارغة المثقوبة كي تشهد عليه، لا يحكي ولا يؤلّف عذراً، فقط يصرخ ويرفع يده عليها (٧٣)، وينام خارجاً، أو يهرب مطمئناً إلى أنّ "انتصار" "عادت تكسب ما لا يكفي الأولاد". (٧)

حتّى شكله لم يوله أيّ اهتمام، فتراه "يهيم في أسواق المدينة وأدراجها، يتنزّه طوال اليوم بمنظره الأغر وذقنه نصف المخلوقة. وقد كان، بشكله وثيابه وتعاسة قسماته، مجرّد امتداد للأمكنة الرتّة التي يقف فيها ساعات متأثلاً حركة السّير أو انسياب ماء النّهر" (٦٠) أو تراه وقد انفتحت شهيتته على الكلام، فصار يروي كلّ يوم فصلاً جديداً من بطولاته المجهولة في ثورة باب الحديد، وراح يضيف إليها أفعال ابنه الشّهيد من دون أن يجد من يصبر على الإصغاء إليه. (١٦٠)

و "عبدالله العزّام" والد "عبد الكريم" لم يكن أفضل من "بلال محسن" بكثير. فهو كانت لديه رغبة واحدة، وحيدة، وهي أن يصبح نائباً، لكنّه لم ينجح في إنجازها (٢٨). فتحوّل عنها إلى البكاء على الأطلال، مجتمداً الرّمن، موقفاً عجلته عند الماضي الذي راح يعود إليه مراراً وتكراراً، ليعدّد أمجاد والده "مصطفى العزّام". فكان "يُجلس ابنه "عبد الكريم"

فوق رجله ويروح يكرّر على مسامعه أبيات المديح في جدّه... وقصصاً عن بطولاته أمام الجيش الفرنسيّ“ (٣٦)، ثم يقبلان معاً صفحات ألبوم الصّور السّميك (٣٤-٣٥)، حتّى صار ”ذاكرة العائلة بعد أن أقعده باكرًا تحطّم ركبته اليمنى إثر إطلاق النّار عليه من قبل أخصام العائلة داخل سوق المدينة“ (٣٦).

وقد أراد الرّوائي، من خلال هذا التّموج من الشّخصيّات، أن يسلّط الصّوء على حالة لطالما عاشها ويعيشها العرب. وهي التّعني بأعجام الماضي من دون الإتيان بما يرقّع الحاضر، ويجعلهم أهلاً له ولمواكبة الزّمن. فجلّ ما يعرفونه أو يفعلونه هو الكلام، وثرثرة لا تعلق بهم إلى مصاف الكينونة الحقيقيّة والفعل الأصيل... لقد أراد أن يسلّط الصّوء على هذه الحالة لينتفض عليها، ليغيّر الزّمن العربيّ الرّاهن... ومثلهم جميعاً كان "عبد الكريم العزّام" الذي ضاقت مساحة عالمه الحاضر، إذ تراه دائماً يستحضر عالمه الماضي، يستحضر مكاناً عاش فيه لفترة قصيرة جدّاً حبّاً غيره وحوّل في حياته... فأمكنه الماضي أي "باريس" تسكنه، في الوقت الذي يسكن هو في أماكن الحاضر أي "طرابلس". ف"أن يكون حرّاً هو أن يكون حرّاً ليتغيّر" (أيتوب: ٢٤٥)، وهو لم يكن حرّاً، لأنّه لم يسع إلى أن يتغيّر، إلى أن يطوي صفحة الماضي، وينتفض عليه ويبدأ صفحة جديدة، بل ظلّ أسير ماضيه، قابلاً فيه. لقد غيّب الحاضر بشكل كليّ، محاولاً أن يستعيد الماضي، حالماً بأن يبقى فيه. وهو، بهذا كلّه، لم يؤسّس لوعيه، ولم يسع لأيّ مشروع أو هدف، إذ كان يمضي أوقاته يستمع للأغاني، أو يهتمّ بالشّجيرات التي أحضرها معه من "باريس".

وهنا، لا بدّ من الإشارة إلى دور المكان في بناء كينونة هذا الرّجل وفي إلغائها. فهو في "باريس"، استعاد كينونته، بعد أن عرف الحبّ الحقيقيّ مع الرّاقصة "فاليريا" التي تأكّد أنّه شفي بها (٨١)، وبفضلها تبدّلت أحواله: بدا حقيقيّاً نضراً، اختفت الحركات العصبية التي تأكل وجهه ما إن ترك نفسه على سجيّتها (٨١). هجر أطواره المضطربة لسنوات ونسي فجواته المعتمة... صار وجهه منوّراً، و صار فعّالاً في وظيفته (٨٣)... لكن، بعد رحيلها، لم يصدّق هذا الرّحيل، لم يقبله، قال إنّها ستعود. إنّها تمازحه تمتحنه... صار يأتي إلى الأستديو، يقفل على نفسه، يتذكّر بعض خطوات الرّقص، يشرع في تقليدها، ثمّ يسقي الأشجار وينتظرها، ينتظر الهاتف حتّى يرنّ، وكلّما رنّ ارتعد تأثراً... تكاثر غيابه عن وظيفته في الشّركة السّعوديّة. ثابّر على طقوس صديقه كأمّها ما زالت في الجوار تتجسّس عليه وتمتحن تعلّفه بها، وأمّها ستظهر في أيّ لحظة... استعاض عنها بأشيائها، قاوم، صمد، أجل، حتّى تعرّض للخيانة من جسمه... وأدخل المستشفى (٨٦-٨٧). صار هزليّاً، شاحباً، فتملّكه من جديد الشّعور الأسود بالفراغ والمنفى (٨٧). حاول من دون اقتناع الاتّكال على نفسه لكسب معيشته، فاكشف أنّه لن يتقن عملاً مفيداً. ولّمّا توقفت التّحويلات الماليّة وتلقّى إنذاراً، أدرك أنّ ما كتب قد كتب، وأنّ حياته بعد "فاليريا" لم تعد تساوي الكثير كالداخل في نفق من الأسى لا ضوء في آخره (٨٧).

أمّا في "طرابلس" فما التقى يوماً بكينونته، إذ عاش في هذا المكان، منذ صغره، حالة غريبة من الوحدة والكتابة والفشل. فأتمه كانت تشفق عليه من رؤيته كئيباً لا ينبس ببنت شفة (٣٧). وأبوه خاف من هذه الكتابة المقيمة في آل العزّام

جياً بعد جيل (٤٢)... بقيت حساسية مرهفة ومشاعر سوداء وكآبة تظلمه بين الحين والآخر، فينزوي إثرها في البيت لأيام يرفض استقبال أي من أصدقائه... بدأت معالم الانخيار المفاجئ تظهر عليه... حتى المكتبة التي راح يرتادها يومياً، كان يجلس فيها وحيداً، بينما رفاقه غارقون في ضجيجهم عند الاستراحات... فيتتالي عليه، في لحظات الوحدة الطويلة التي يمضيها هناك مع الكتب وآلام المراهقة، معاناة غامضة، إحباط من دون سبب يجعله أحياناً يجهش بالبكاء عالياً، فتختلط أحزانه بمطالعته (٤٠)، وأحلامه التي كان يرى فيها أنّ نساء جامحات عاشقات ينتظرنه هو في إحدى المدن الأوروبية (٤١). تزوج، لكنّه فشل في زواجه منذ اللحظة الأولى. وصار الأقارب والمعارف يميلون إلى تصديق رواية أهل العروس التي تقول همساً إنّ ابن العزّام الذي لم يحبّ ابنتهم لا يحبّ جنس النساء كلّهن، وإنّ لديهم إثباتات على ذلك، فعاد "عبد الكريم" إلى حاله المبعثرة الأولى... ولم يترك لديه هذا الزواج الخاطف سوى ذكريات متعبة عن افتتاح غرفة نومه من قبل فتاة بدينة... (٤٣) لقد كان غريب الأطوار من صغره وزادت غرابته بعد هجرته الطويلة (١٧). ففي اليوم الأول لوصوله من الهجرة، استلقى في عتمة غرفته لا يعرف من أين يبدأ ولماذا يبدأ. لم يغيّر ثيابه ولم يستحمّ ليظيل بقاء جسمه برائحة حياته هناك (٩٠). صفّ الأشجار وفق الترتيب الذي اختارته لها "فاليريا" في شقّتها، وضع تنانيرها في خزانة ثياب غرفة النوم المجاورة لغرفته وأففل عليها (٩١-٩٢). لقد عاش، في هذا المكان، وحيداً هادئاً. تارة، تراه يغلق النوافذ، يسدل الستائر، يرتقي فوق أريكة مغمض العينين منتشياً، ويطلق العنان لمغنيته... (١٨) وتارة أخرى، يجلس قرب النافذة، قرب نور الشمس المتسرّب إلى الدّاخل، يرتشف القهوة جرعات لا

تنتهي، وينكبّ فوق واحدة من الأشجار التي حملها في حقائبه من "باريس"... (١٩) كان يكثر من التّبيد الأحمر وبنام (٧٨). ينزوي في شقّته تراوده صورة راقصة "كستارة البندق"... (٧٩) يقات ذكري حبه عبر أسطوانات الموسيقى والأغاني الأوبرالية والعناية بأشجار البونزاي القزمة التي أودعتها حبيبته لديه، من دون أن ينسى يوماً طعم التفاح المغطّس بالسكر الذي أطعمته إيّاه "انتصار" حين كان طفلاً وزار "حيّ الأميركان".

لقد رفض الحاضر بما ومّن فيه، لدرجة أنّه عندما عاد من جولته في المدينة بدا ساقط الكنفين كطائر مصاب (٩٣). وعندما زاره ابن عمّه بدا متوتراً تشتدّ عليه رقة العينين وانقباضات عضلات الرقبة (٩٤)، وفور خروجه نظّف الهواء وراءه بصوت العاشقة اليائسة "مونسيرو كاباليه" في "لاترافياتا" (٩٥)، فكان، كلّما ارتفع هذا الصّوت في أرجاء البيت، كان مزاج "عبد الكريم" يميل إلى السّواد (٩٥). وصار إدمانه الأصوات النسائية الصّادحة في البيت وجلوسه لترميم أشجار البونزاي من آثار رحلة الطّائرة علاجاً يومياً يشعر بأنّه يعيد وصله بسنوات نعيم هوى... فلقد بقي له خيط رفيع أن يرنّ الهاتف يوماً ويسمع صوت "فاليريا" يأتي عميقاً... فيبيع بيت العائلة ويهرع إليها. (٩٥-٩٦)

باختصار، لقد كانت أمكنة "عبد الكريم" منفيّاً منها، كما كان دائماً منفيّاً من حيث يعيش من يحبّهم (٩٦). أمّا "انتصار" زوجة "بلال محسن" ووالدة "إسماعيل"، المرأة شبه الوحيدة التي كان لها دور في النّصّ، فلم تكن أفضل ممّن ذكروا قبلها، بل كانت نموذجاً سيئاً للمرأة، مع أنّها حاولت أن تعيل أولادها من خلال عملها في منزل "آل العزّام". لكنّ دورها اقتصر على تأمين لقمة عيش بسيطة

من دون العمل على توفير ما هو أسمى، ما يرقى بها وبأولادها إلى مرتبة أفضل. لقد كانت امرأة لا ترى في نفسها سوى الجسد الذي تعمل على تجميله وكأنه السلاح الوحيد لديها، والتي لا يرى فيها الآخرون سوى هذا الجسد أيضاً. فجلّ ما أُسند إليها من أفعال تمحور حول جسدها، ذاك القوام المستقيم الذي يستدرج عيون الرجال حتى بعد بطونها الأربعة (١٣): فهي كانت سهلة المنال، تخلط بين الإقدام على أفعال الشقاوة وتقبيل الشبان الأكبر سناً منها، وفتح فخذيها أمام مداعبات الأصابع (٥٩)... تجد لذة في طلاء أظفرها بتأنٍ بعد أن تستحمّ وتسمح لها الفرصة النادرة لتكون منفردة في البيت مع جسمها (٩). وهي عندما تحزرت من الضغط الديني الذي مارسه ابنها عليها "لم ترجع إلى رداها الشرعي الذي ألبسها إياه "إسماعيل"، بل ارتدت سروالها الجينز الضيق الذي يعيد رسم قوامها" (١٥٨). فهي "جسد ما زال ينادي" (١٠٢). وهي أمام تحقير زوجها لها وأمام معاملته السيئة لها، لم تسع إلى التمرد أو الغضب أو الرفض بغية تأمين واقع أفضل، بل كانت "تقبل صراخه، تتحمل دفعة منه أو ضربة على كتفها..." (٧٣) وبهذا قبعت "انتصار" في زاوية من الوجود شاءتها لنفسها، سطحية، راضخة، لا تروم الأفضل، ولربما هذا الأفضل ليس ضمن نطاق اهتماماتها... ما جعلها بعيدة عن كينوتها الأصلية.

إدًا، في مكان كهذا، غريب، مهذد، مهذد، بارد، صامت، قانع، غير متحفّز... يموت في الإنسان بعده الاجتماعي وبعده الذاتي فيختزل، وتتقلص حياته، وتنحصر في الوظائف البيولوجية، وما بقي من حركة فإنها مضطربة، مجنّاة، لا تستغل الوقت، بل تسير في الفراغ... في مكان كهذا، لا يملك الإنسان سوى أن يتبلد ويكن إلى السبات ما

يؤدّي إلى تدمير المكان. في مكان كهذا تعاني الذات، تضيق... يلازمها الشعور بالعدم الوجودي التزعّة. وهذا ليس بأمر غريب في مجتمع عربي "أفرز حاضره أزمة الثقة التي تعيشها الذات العربية"... (إلى أين ٢٠١٢: ١٠)

## ٢- الذات تنتفض على وجودها اللاأصيل بعيداً عن المكان.

إنّ "المكان هو شرط الوجود الفاعل والهوية والحريّة"، فكيف يمكن لمكان كـ "حيّ الأميركان" أن يجعل من وجود شاب كـ "إسماعيل" وجوداً فاعلاً، حرّاً، وأن يسمح له بأن يشكّل هويته وكينوته الأصلية؟

فهو، في هذا المكان، كان يلتقي والده "بلال" مصادفة على أدرج "حيّ الأميركان"... وهو، في هذا المكان، "طرد مثل أبيه إلى أدرج الحارة وأزقتها، فدخل عصابة، حيث مرّ في امتحان لـ السواعد وإعادة إشعال أنصاف السجائر المرمية أرضاً والتحرّش بالفتيات"... (٦٥) في هذا المكان، كان "يمضي الليل ساهراً على الأدرج مع العصابة جالساً في وضعية تشبه وضعية والده"... (٦٧) في هذا المكان، كان يحضر في مدرسة مهنية تسجل فيها يوماً وغاب أياماً... (٦٦) وكان يتلع الحبوب المنشّطة هو ورفاقه ويخرجون لتشويه لوحات الإعلانات التي تظهر فيها نساء باللباس الداخلي فقط... (١١٥) في هذا المكان، "حلق شعره ليقول بلا مبالاة إنّه ملاك الموت" (٦٦-٦٧)، فـ "صارت تلصق به أفعال لم يقم بها" (٧٠).

في هذا المكان، انقلب انقلاباً جذرياً على واقعه، لكنّه لم يبتعد عن كينوته الضعيفة وعن وجوده اللاأصيل، فانتقل إلى حالة مناقضة كلّ التناقض لما كان عليه، إلى حالة أرادها له الآخرون. تدنّ إلى حدّ التّطرف، إلى حدّ بدا معه

إنساناً غريباً، في عينيه "شيء هارب ونظرة مواربة" (٧٢)... وفي سلوكه "تلك الجمدة التي تكاثرت الإصابة بها: صار يمشي وحيداً مطرفاً لا يسرع الخطى. انفضّ رفاق الحي من حوله واحداً تلو الآخر كأنه تقدّم عليهم في السنّ، وصار إذا كلّمهم فلكي ينهاتهم عن هذه وتلك من أفعال اعتادها معهم... ثابر على الصلوات الخمس يوماً... صار يقوم فجرًا للوضوء والركوع، أجل إرخاء لحيته بناء على نصيحة شيخه الذي فضّل له الانتظار إلى أن تصبح كتّة ووعد نفسه معها بالثياب الشرعية... صار يمتنع عن التسليم باليد على النساء، اشترى لأمه الثوب الشرعيّ قائلاً إنّ النساء يجب ألا يرتدين ثياباً ضيقة" (٧١). بات يُعيظه الدلال فيجيب أمه باقتضاب شديد وصوت جامد من حيث هو من دون أن يستدير... أقلع عن المزاح والضحك... صبر على تهكمات رفاقه، صبر على كلّ شيء... أصبح يجلس وحده هادئاً في الغرفة يتأمل سارحاً في فراغ الجدار الأبيض المبتّع أمامه... (٧٢) ما عاد يقبل بدخول الخمر إلى البيت متوعداً والده بنار جهنّم ومعدداً له أفعاله الشنيعة: عال. لا تصلّي ولا تصوم، وتشرب أيضاً؟ (٧٤) أضحت رغبته القصوى هي في أن يموت في الجهاد في سبيل الله وأمة الإسلام (١٢٢).

في هذا المكان، لم يكن "إسماعيل" حرّاً، بل كان لا شيء، كان تلك الريشة التي تحملها كلّ ريح... كان كالطفل يتلقّى وجوده من الآخر، تارة من رفاق السوء، وأخرى من رجال الدين.

لكن، بعيداً عن هذا المكان، شعر "إسماعيل"، وفي لحظة من لحظات الزمن، بأنّ هناك ما ينقصه، وبأنّ ما اختاره، أو ما كان عليه، لم يكن الخيار الأصيل. و "الإنسان وحده من بين الكائنات يكتشف نقصه، يدرك أنه وجود ناقص،

وأنه في ترابط تأليفيّ مع ما ينقصه. من هنا كان سعيه الدائم إلى مجاوزة نفسه نحو ما ينقصه، إلى الوجود الخاص الذي سيكونه". (أيوب: ٢٤٧)

بعيداً عن المكان، شعر "إسماعيل" بأنّه يبغى الانتفاض على ماضيه، رغب في أن يرفض ما اجتمع كثيرون على إقحامه فيه. و "لأنّ الرغبة نقص في الوجود فإنّها تحمل مباشرة على الوجود الذي هي نقص فيه" (أيوب: ٢٤٨). وهكذا كانت رغبة "إسماعيل" قادرة على رسم وجود آخر له، وجود تجلّت فيه إنسانيّته بأبهى حللها. بعيداً عن المكان، كان "الحدث الحاسم الذي دفعه إلى التحوّل من وجود معطى إلى وجود ينشئه هو بنفسه" (أيوب: ٢٤٤). في لحظة القرار، وبعيداً عن المكان، كسب ذاته، كسبها لأنّه تمرّد على ما بات مألوفاً ويوميئاً: الإرهاب وقتل الأبرياء باسم الإسلام. و "الموجود الإنسانيّ يكسب ذاته، وهذه الذات تصنع وجودها وحدها". (أيوب: ٢٤٣) في لحظة القرار، وُجد وجوداً حقيقياً، و "أن يوجد يعني أن يختار نفسه، والاختيار ليس انتقاءً إنّما هو عملية إيجاد للذات، ما يعني أنّ وجود الإنسانيّ هو حرّيته" (أيوب: ٢٤٦). ولّمّا كان القصد اختيار الغاية، وبما أنّ العالم ينكشف عبر مسالكنا فإنّ العالم ينكشف إذاً تبعاً للغاية المختارة (أيوب: ٢٤٦). فالاختيار هو اختيار للذات ولطريقة الظهور في الوجود، وللوجود في العالم، فليس هناك أفعال عرضيّة، إنّما ثمة أفعال لتدبير قصديّ (أيوب: ٢٤٦). إنّ الشّخص يعبر عن ذاته كلّها في كلّ نزعة أو ميل أو مسلك أو فعل. وعلم النفس التجريبيّ يحدّد الإنسان برغباته، ويعتبر أن هذه الرغبات هي مضمون وعيه، وأن معناها ملازم لها. ف "سارتر" يعتبر تلك الرغبات هي الوعي نفسه في بنيته المشتركة المتعالية حيث إنّ الوعي هو وعي بشيء ما (أيوب:

٢٥٠). وهكذا لم يكن فعل رمي الحزام النَّاسف فعلاً عرضياً عابراً، بل فعلاً قصدياً، وتجلّ واضح للخيار الأصيل الذي انتهى عليه "إسماعيل"، للخيار الذي جعله حرّاً، متفلّماً من قيود الآخر.

إذاً، بعيداً عن المكان، عبر "إسماعيل" من وجوده اللأصيل إلى وجوده الأصيل، هذا الوجود الذي يحسّ وحده بالمصير وبضربة القدر. وبهذا العبور عمل الرّوائي على تغييره، على تغيير الذات العربيّة الرّاهنة، على تحويلها، على إنقاذها من أسر الدّين إلى رحابة الحرّيّة، بعيداً عنه وعن التّطرّف الذي يسعى إلى نشره. هذا الدّين الذي يُنتج الإرهاب ويورده إلى أماكن أخرى، الذي يُحصّر الشّباب المتعبين من الفقر والإهمال والإحباط لينغمسوا في هذا الإرهاب، ويكونوا مشاريع أحزمة ناسفة تقضي على أبرياء لا يرون فيهم إلا أعداء للإسلام وللأمة الإسلاميّة.

في لحظة الانتقال من الأصاله إلى الأصاله، من المعنى التّاقص إلى "المعنى الشّامل الذي هو الـ "أنا"" (أيوّب: ٢٤٩) كان هناك عودة إلى الأصيل، إلى المصدر، إلى الحضن الأوّل: إلى الطّبيعة، إلى العائلة، إلى الأمّ. لقد طُلب من "إسماعيل" تفجير سترته عند توقّف حافلة غالبيّة ركّابها من العائلات، ذاهبة إلى "المحموديّة" في "العراق"، في محطة الرّكّاب التي تكون عادة مكتظة بالنّاس (١٢٩). لكنّه، وسط الباصّ، رأى طفلاً فقال: هذا أخي، وأما فقال هذه أمّي (١٥١). وسط الباصّ، وسط التّردّد والقلق، كان وجه أمّه لا ينفكّ يناديه... (١٤٧) وسط الباصّ، ظهر أمامه صبيّ يمشي في الممرّ بين المسافرين، يمشي نحوه خالفاً رجله اليمنى مثل أخيه الأصغر... وهو يعدّ ركّاب الحافلة... وعندما وصل الصّغير إليه وغرز سبابته في صدره إلى جهة القلب، انفرج "إسماعيل"

فرغب بشدّة في تطويق الصّبيّ بذراعيه وسؤاله عن اسمه وتقبيله طويلاً في عنقه الرّقيقة، لولا خشيته من حركة مباغتة تفجّر الحزام. فاستيقظ من داخله، ترجّل من الحافلة، مشى وهو يقوّر بطنه إلى الدّاخل، ليبعده عن الحزام، ليفصل بين جسمه والمسامير، نزع الرّتار عنه في دورة المياه... رمى الرّتار خلف جدار المراحيض، في فراغ قد لا يصل إليه أحد في المستقبل القريب... (١٣٠-١٣١) كذلك الطّبيعة، فبيما كان "إسماعيل" "بمجدّ في المشي، تظهر إلى يمين الطّريق غوطة خضراء تناديه، ينحرف داخل المنبسط ويستلقي على ظهره في العشب العالي الرّطب. يطنّ صوت زيز في الفضاء وهدير بعيد عميق للشّاحنات العابرة. نام إسماعيل هنيئاً ساجداً بالقرب من جمّ فوّاح من الأفحوان البرّيّ الأصفر، رأى منامات طفوليّة متقطّعة مثل محتارات من زمن السّعادة" (١٤٥). في هذه المرحلة، طفّت "على وجهه ابتسامته الأولى منذ أشهر طويلة" (١٤٤).

إذاً، أن يجعل الكاتب "إسماعيل" رافضاً للقتل في اللّحظات الأخيرة، فهذا يعني أنّ المكان لم يعدم الإنسانيّة في نفسه إعداماً تامّاً. وقد نوّه الرّوائي بأنّ "إسماعيل" عاد ليعانق وجوده الأصيل لأنّ الحياة تفوّقت فيه (١٥٥)، عاد لأنّ بقايا الإنسانيّة فيه اشتغلت وجعلته يمتنع عن التّفجير... لقد وقفت في وجه التّطرّف والموت، بقيت الخميّة التي يمكن أن يُركن إليها لإعادة "إسماعيل" إلى كينونة حقيقيّة وأصيلة، فيما لو وجد من يساعده على استعادة هذه الإنسانيّة. وهنا تُلقى المسؤوليّة بكلّ ثقلها على الأهل المقصّرين عن دورهم، لا بل الغائبين عنه، كما تُلقى على الدّولة التي تمنع في غيبوتها وفي وعيها للدّور الوقائيّ الذي عليها القيام به تفادياً للوقوع في هذا النّوع من المآسي، والأعمال الشّاذّة والإجراميّة. كما تُلقى

على المجتمع الكلّي، العربي وغير العربي، الذي عليه أن يدأب على تطهير الذات الإنسانية من كل ما قد يؤول إلى هذا الواقع المرير، أو ينتجه ويعزّزه، ويحاسب كل مسؤول عنه، أكانت مسؤوليته مباشرة أم غير مباشرة...

في اللحظات الأخيرة انتصرت الإنسانية، وهذا انتصار شاذّ عن قاعدته، لأنّ الأرض، وخصوصاً أرض العرب، قد عجّت بهذا النوع من الانفجارات التي ما استفاقت الإنسانية في ضمير صاحبها ولا لبرهة قصيرة.

لكن للأسف، فالبنية الدائرية للمكان والتي أعادت "إسماعيل" إلى "حيّ الأميركان"، جعلته يتوه من جديد في عبثية هذا المكان، بعد أن غدا ملاحقاً فيه من قبل الدولة التي لم تحتضن فعله الأصيل، ولم تعزّزه. ف"أصيب بدوار، ارتبك كاهرة التي تقع فجأة في دائرة ضوء باهر. انتصب أمامه الجدار من جديد..." (١٤٨) و"أدرك أنّه في آخر الطريق، وأن لا مكان يقصده بعد "بيت العزّام"، وساعة يخرج من هذا البيت ستتكشف حياته على الملأ. ومع أنّه، عندما هرب من بيت "آل العزّام" بعد ملاحقة رجال المخابرات له، قال: سأعود... سأعود لأخذ شجرتي" (١٥٧)، إلا أنّه لم يعد وانتهت الرواية في المجهول، في انعدام المكان، وانعدام الفعل... ختاماً، يمكننا القول إنّ الصورة المكانية، في هذه الرواية، جاءت خادمة للسرد، وجعلته أكثر واقعية ومصداقية وقدرة على نقل الوقائع والأحداث، وما يختلج في النفوس من مشاعر وصراعات، خصوصاً في تعمدها ذكر الأشياء والأماكن والتّنباتات والحيوانات، كما هي في أرض الواقع، لترسم مزيداً من الدقّة في استحضار الأمكنة وتأطيرها، كما في الوصف والتّصوير...

والمكان، بوجهيه، بلغ أهميّة كبيرة جعلت منه المكان الإشارة أو الرمز الذي يوحي بدلالات كثيرة ساهمت كلّها في إنتاج المعنى. فيه تاهت الذات وعاشت نوعاً من الصّراع بين الإقامة والمغادرة، بين الألفة والغربة، بين الدّفء والصّقيع، بين الموت والحياة، بين الأصالة واللاأصالة...

وبهذا، خرج المكان من إطاره الجغرافي، ليتحوّل إلى إطار نفسيّ وجوديّ لصيق بالذات، ومشكّل أو غير مشكّل للكينونة والوجود... لقد مثل المكان الدّور، كلّ الدّور الذي أراه الروائيّ لروايته. فكان الكلّ، كان الحكاية، والمعنى الكامن والمنشود. لقد كان هدف المشروع، بمعامله ارتسمت الرّغبة، وعاشت الذات صراعها الوجوديّ. ما جعل رواية "حيّ الأميركان" رواية المكان، بزمانه وناسه ولغته والحياة التي تدبّ في حناياه... رواية المكان الذي استعاض عن صغره بأن تحوّل، عبر الزّمن، لأن يكون جزءاً من أحداث كبرى تجري في العالم. رواية التّيهان بين الأصالة واللاأصالة، بين معانقة الكينونة ومغادرتها...

فهل سنبقى، كعرب، تائهين عن أصلتنا، عن كينونتنا، غارقين في مستنقع الضّياع والغربة والتّفهقر والكرهية، عطاشى إلى الدّم والقتل والعنف؟... إلى متى سيبقى مكاننا مكتبلاً بهذه الأغلال، مثقلاً بما كلّها؟... إلى متى سيبقى شبابنا وشاباتنا ضحايا هذا المكان، وما فيه من جهل وتزمت ورفض للآخر؟... متى تنتهي هذه الدّوامة؟... متى نعي أننا بأيدينا نصنع الإرهاب، ونضرم نار الحقد؟... متى نضع حدّاً لما تقترفه أيدينا، لتجاهلنا وتقصيرنا، ولتلاعب الآخرين بنا؟... متى نعيد الدّين إلى حيث كان، إلى حيث يُفترض أن يكون، إلى صلاح البشريّة وخيرها؟... لقد آن الأوان، وعلينا أن نتحرّك...

## \* المراجع

الدّويهي جبّور. حيّ الأميركان. بيروت: دار السّاقى، ط ٢، ٢٠١٥.

إلى أين يذهب العرب؟ (مجموعة مفكّرين)، بيروت، لبنان: مؤسّسة الفكر العربي، ٢٠١٢.

أيّوب، نبيل. نصّ القارئ المختلف (٢) وسيميائية الخطاب التّقدي. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠١١، ط ١.

الجابري، محمّد عابد. إشكاليات الفكر العربي المعاصر. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠١٩.

حيدر، فؤاد. علم النّفس الاجتماعيّ، دراسات نظريّة وتطبيقية. بيروت: دار الفكر العربيّ، ط ١، ١٩٩٤.

زراقت، عبد المجيد. في بناء الرواية اللّبنانيّة، الجزء الثّاني. بيروت: منشورات الجامعة اللّبنانيّة، ١٩٩٩.

زيتوني، لطيف. معجم مصطلحات نقد الرواية. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون - دار النّهار للنّشر، ٢٠٠٢، ط ١.

زما، بيير. التّقذ الاجتماعيّ. ترجمة عايدة لطفي، مراجعة: د. أمينة رشيد و د. سيّد البحرأوي. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط ١، ١٩٩١.

شحرور، محمّد. تحفييف منابع الإرهاب. بيروت، لبنان: دار السّاقى، ٢٠١٧.

الضّبع، مصطفى. استراتيجيّة المكان: دراسة في جماليّات المكان في السّرد العربيّ. مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠١٨.

علينا ألاّ نبقي الكثير من الأحياء في عالمنا العربيّ شبيهة بـ "حيّ الأميركان"، وأن نروم مكاناً آخر، مختلفاً، حضناً ديفياً، ركناً متيناً، نعيش فيه واقعاً أفضل، ونؤسّس فيه لإنسان أسمى؟ علينا أن نستعيد أصلاتنا وكيونتنا، أن نعانق ذواتنا الحقيقيّة، أن ننقذ نفوسنا وأمكتنا من إرهاب دنّس المكان ودنّس النّفوس...

لقد آن الأوان لأن نعود أمة واحدة، نتمايز فيما بيننا، مجبّنا لأرضنا والمكان، بانتمائنا إليهما، وبتوقنا إلى التّحرّر من كلّ ما يأسرنا ويعيق تقدّمنا وتألّفنا وانبعثنا من جديد... وإن كان لا بدّ من دستور يعرّى هذا الحبّ، وهذا الانتماء، وهذا التّحرّر، وهذا التّقذ، فلنختر غير الدّين المتزمت والمشعل الحروب والفتن سنّة وشريعةً لحياتنا...

## \* ملخّص الرواية

"حيّ الأميركان" رواية لبنانيّة تختصر حياة مدينة فقيرة معدمة. من رحمها يخرج "إسماعيل" الشّابّ المشاغب المنتمي إلى عصابة الأميركان، ليجد نفسه بعد وقت قصير منتمياً إلى جمعيّة "الهداية الإسلاميّة"، منغمساً في المسائل الدّينيّة المتطرّفة، ومن ثمّ مجنّداً للقتال في العراق، عبر تفجير نفسه في حافلة ركّاب بواسطة حزام ناسف. إلاّ أنّه، وفي اللّحظات الأخيرة، يتراجع بعد أن يرى طفلاً صغيراً يشبه أخاه الأصغر متّجهاً نحوه. فيرمي الحزام النّاسف عند سور مرحاض المحطّة. ويعود إلى لبنان حيث يُلاحق من فرع المعلومات في الدّولة اللّبنانيّة، فيلجأ كما اعتادت عائلته إلى آل العزّام الذين خدموهم لسنين. و"عبد الكريم" وريث آل العزّام العائد من باريس، والذي يعيش على ذكرى حبّ عاشه هناك، يساعد "إسماعيل" على الهرب.

علّوش، محمّد. داعش وأخواتها: من القاعدة إلى الدّولة  
الإسلاميّة. بيروت، لبنان: رياض الرّيس للكتب  
والنّشر، ٢٠١٥.

العيد، يحيى. فنّ الرّواية العربيّة بين خصوصيّة الحكاية وتميّز  
الخطاب. بيروت: دار الآداب، ١٩٩٨.

الفتلاوي، سهيل حسين. حقوق الإنسان في الإسلام.  
بيروت: دار الفكر العربيّ، ط١، ٢٠٠١.

لحمداي، حميد. بنية النّص السّرديّ. الدّار البيضاء: المركز  
التّقائيّ العربيّ، ط٢، ٢٠٠٠.

النّابلسي، شاكر. جماليّات المكان في الرّواية العربيّة. لبنان:  
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ١٩٩٤.

مجلة كتابات معاصرة: فنون وعلوم، لبنان: الياس لحود، العدد  
١٠٤، أكتوبر ٢٠١٧.

مجلة كتابات معاصرة: فنون وعلوم، لبنان: الياس لحود، العدد  
١٠٥، نوفمبر ٢٠١٧.